علاقات المماليك المصريين السياسية بالدولتين الصفوية والعثمانية في مطلع القرن السادس عشر

طارق نافع الحمداني*

* حصل على الدكتوراه من جامعة مانشستر بانكلترا عام ١٩٨٠ .
يعمل مدرساً للتاريخ الحديث في كلية التربية بجامعة بغداد .

الملخص :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة المملوكية في مصر تسير في طريق الزوال والاضمحلال بسبب انتقال طرق التجارة الدولية عن موانئها الرئيسية في بلاد الشام ومصر ، كانت الدولتان الصفوية والعثمانية تنموان وتتوسعان بصورة سريعة ، وعلى حساب الدولة المملوكية بالذات . وفي الوقت نفسه تعرضت الدولة المملوكية لخطر آخر من قبل البرتغاليين الذين لم يهددوا موارد الدولة الأساسية المتأتية من التجارة الدولية بالانقطاع ، بل هددّوا سيادة هذه الدولة في عقر دارها .

لقد كان على الدولة المملوكية أن تواجه جميع هذه القوى مستخدمة في ذلك جميع وسائلها المتاحة سواء أكانت حربية أم دبلوماسية وهذا ما عملته بالذات تجاه الدولتين الصفوية والعثمانية من جهة ، ودولة البرتغال من جهة أخرى . فعندما كانت الدولة الصفوية تتوسع على حساب الدولة المملوكية في بلاد الشام ، وقفت الدولة المملوكية منها موقفا مناوئا ، وازداد هذا الموقف المناوىء بعد أن علمت مصر بوجود حلف عدائي بين الصفويين والقوى الأوروبية للقضاء على الدولة المملوكية . وقد أدى هذا الأمر إلى توقف الاتصالات الدبلوماسية بين هاتين الدولتين عام ٩١٧/١٥١١ ، ولم تتجدد إلا في عام ٩٢٠/١٥١٤ ، وذلك عندما خسر الصفويون في نزاعهم مع العثمانيين فأرادوا أن يحسنوا في علاقاتهم مع المماليك .

وعلى النقيض في العلاقات المملوكية ـــ الصفوية التي بدأت عدائية وانتهت ودية ، فإن العلاقات المملوكية ـــ العثمانية بدأت ودية وانتهت عدائية . وليس أدل على ذلك من قيام العثمانيين بتقديم المعونات البحرية المختلفة زمن السلطان بايزيد الثاني للسلطان المملوكي قانصوه الغوري لمساعدته في الوقوف بوجه الخطر البرتغالي في البحار العربية الجنوبية .

إلا أن هذه العلاقات الحسنة سرعان ما تحولت إلى علاقات عدائية وذلك لما ساد في الأوساط العثمانية من الشكوك بوجود تعاون صفوي ـــ مملوكي ضد الدولة العثمانية ، والذي كان من نتيجته غزو العثمانيين لبلاد الشام ومصر والقضاء على الدولة المملوكية .

إن المتتبع لهذا البحث يجد بأن الدولة المملوكية كانت في موضع حرج إزاء قوى عديدة فما كان عليها إلا أن تجابهها جميعها ، ولذلك يمكننا أن نتوصل إلى الآتي :

١) ان الدولة المملوكية بعد أن أحست بحراجة موقفها إزاء الدولتين الطامعتين ، حاولت أن تتلمس مختلف الأساليب لتجنب خطرهما ، مستخدمة في ذلك الوسائل الدبلوماسية قدر الامكان ، ولم تلجأ إلى الأساليب الأخرى إلا حينما تكون مضطرة لذلك ، وذلك في حربها مع العثمانيين عام ١٥١٦ .

٢) إن الدولة العثمانية في توسعها على حساب الدولة المملوكية لم تكن مدفوعة بالعلاقات العدائية الآنية التي حدثت بين الدولتين ، بل يبدو أنها كانت جزءاً من الخطة العثمانية في التوسع على حساب مناطق الوطن العربي في مطلع القرن السادس عشر ، ومن بينها بلاد الشام ومصر .

قامت في منطقة الشرق الأدنى في مطلع القرن السادس عشر ثلاث قوى كبرى هي الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز ، والدولة الصفوية في فارس ، ثم الدولة العثمانية في آسيا الصغرى . وفي الوقت الذي كانت فيه القوتان الأخيرتان تمران في مرحلة من النمو والنشاط ، كانت القوة الأولى قد وصلت إلى حالة من الاعياء الشديد بسبب تحول التجارة الشرقية على يد البرتغاليين إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وبسبب حروب المماليك المستمرة فيما بينهم أو ضد الأخطار الخارجية . وقد بدأت هاتان القوتان تشكلان تهديداً مباشراً للقوة المملوكية ، وذلك لأن كلا القوتين أخذت تنمو على حساب الدولة المملوكية ، وقامت ببناء دولتها على أساس التوسع والسيطرة على حساب المناطق الأخرى المجاورة ، وبالذات المناطق الحدودية التي كانت تفصل بين هذه القوى الثلاث ، أي الامارات التركمانية .

وإذا ما كانت الأخطار القادمة من الشرق والشمال ، أي من الدولتين الصفوية والعثمانية تنذر بالخطر ، فإن الوصول المفاجيء للبرتغاليين إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر قد أضاف خطراً أكبر للدولة المملوكية لأنه حتم عليها توفير الاستعدادات الدفاعية الكافية لمواجهتهم ، خصوصاً بعد أن تمكن البرتغاليون من توطيد سيطرتهم على حدودها الجنوبية وهددوا مواردها الأساسية . إزاء هذه الظروف المتشابكة قرر المماليك المصريون الدخول في حرب مع البرتغاليين في حين أنهم عمدوا إلى مناورة القوتين الصفوية والعثمانية قدر الامكان لتجنب خطرهما وإقامة علاقات سياسية سلمية ومتكافئة معهما ؟ وهذه الناحية الأخيرة هي التي ستكون موضوع هذا البحث .

١) العلاقات المملوكية ــ الصفوية :

أ ــ العلاقات العدائيـــة :

كان لظهور الدولة الصفوية[١] بزعامة الشاه إسماعيل الصفوي عام ٩٠٧هـ /١٥٠١م أثر كبير في حدوث تطورات عديدة في منطقة الشرق الأدنى ، وذلك لما كانت تحمله هذه الدولة من نزعات مختلفة . فالدولة الصفوية التي برزت في مطلع القرن السادس عشر كانت تعمل على خلق دولة قوية سياسياً وتقوم على نزعة دينية . وقد استخدمت هذه النزعة الدينية في تقوية هذه الدولة وفي مواجهة مشاكلها المتعددة مع القوى الأخرى ، سواء أكانت سياسية أم عسكرية (Toynbee, 1965: 353) , (Savory, 1980: 27 - 30) . وكخطوة أولى في طريق بناء هذه الدولة فقد أخضعت لسيطرتها العديد من القوى والامارات في المنطقة ، كان من بينها دولة الأق قوينلو[٢] في فارس والعراق ، وإمارة ذي القدر ــ الواقعة على الحدود المشتركة بين كل من الدولة المملوكية والصفوية والعثمانية (القرماني ، ١٩٧٨ : ٣٤٠) ، (Savory, 1980: 35) . وقد أخافت هذه السياسة التوسعية القوى المجاورة ومن بينها دولة المماليك في مصر التي أخذت تعد العدة للوقوف بوجه الخطر الصفوي . والتساؤل هنا : ماذا كان الهدف الأساسي لسياسة الدولة الصفوية التوسعية وما هو موقف دولة المماليك منها ؟

لقد أقام الصفويون دولتهم ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك أعلاه ، على أساس التوسع والسيطرة على حساب الدول المجاورة ، وكانت إمارة ذي القدر التي يحكمها علاء الدولة من أولى الطموحات الصفوية . إذ آوت هذه الامارة السلطان مراد ، أحد أمراء الاق قوينلو ، وأقامت معه تحالفاً مضاداً للدولة الصفوية ، ولما كان الوصول إلى أراضي إمارة ذي القدر يتوجب المرور بأراضي الدولتين المملوكية والعثمانية ، لوقوع أراضيها بينهما ، فقد أثارت أخبار تحرك الجيوش الصفوية على البلاد الشامية اهتمام الدولة المملوكية وقامت بمحاولة تجهيز حملة عسكرية ضدها في عام ١٥٠٢/٩٠٨ (ابن أياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٩) . إلا أن الجيوش الصفوية انسحبت في العام نفسه ، وذلك لأنها لم تستطع أن تحقق انتصارات حاسمة على دولة ذي القدر[٣] ، ولقرب حلول فصل الشتاء (ابن أياس ، ١٩٦٠ ، ج ٤ : ٩٣٦ ــ ٢) ، (Grey, 1971:194-7) ، (القهواتي ، ١٩٧٥ : ٣٤ــ٤٠) تكررت محاولة الشاه إسماعيل الصفوي ضد إمارة ذي القدر عام ١٥٠٧/٩١٣ إذ قاد حملة كبيرة ضد علاء الدولة ، حاكم البستان ، ووصلت طلائع قواته إلى أراضي الدولة المملوكية ، مما أغاظ السلطان قانصوة الغوري فقرر تعبئة القوات المملوكية لاعداد حملة ضد أي خطر قد تتعرض له حلب ، ولكن هذه الاستعدادات التمهيدية قد أوقفت بسبب انتصار قوات علاء الدولة على القوات الصفوية ، وانسحاب الأخيرة من إمارة ذي القدر التي كانت تحت نفوذ الدولة المملوكية الاسمي (ابن طولون ، ١٩٦٢ ، ج١ : ٣١٦) ، (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ١١٨) ، (Clubb, 1973: 412) .

ومما تجدر الاشارة إليه في هذا المجال ، أن المبعوث العثماني قد وصل إلى القاهرة في الوقت الذي وصلت فيه القوات الصفوية إلى حدود الدولة المملوكية ، فاستقبله السلطان المملوكي بترحاب كبير (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ١١٩) ، (Clubb, 1973: 412) وبعد فترة قصيرة من ذلك وفد إلى السلطان مبعوث من قبل الشاه اسماعيل الصفوي وهو يحمل اعتذارا عن دخول القوات الصفوية الأراضي المملوكية (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ١٢٣) ، (Clubb, 1973: 412) ولكن يبدو أنه لم يلق نفس الترحاب الذي لقيه الوفد العثماني بسبب امتعاض السلطان المملوكي من الهجمات الصفوية المتكررة على بلاده .

ومع ذلك كله ، فإن المماليك المصريين لم يقوموا بأعمال جدية حاسمة ضد الخطر الصفوي القادم من الشرق ، وليس أدّل على ذلك من عدم استجابتهم للنداءات التي وجهها السلطان مراد بن يعقوب ، الذي طلب العون والمساعدة منهم ، بعد أن طرده الصفويون من بغداد عام ١٥٠٨/٩١٤ . ويحدثنا ابن إياس عن ذلك بقوله : « وكان (مبعوث السلطان مراد) يروم أن السلطان يمد صاحب بغداد بعساكر من مصر حتى يحارب الصوفي (أي الصفوي) فما طاوع السلطان على ذلك (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ١٤٣) ولعل عذر السلطان المملوكي في ذلك أن ظروف بلاده لم تكن تسمح له الدخول في حرب حقيقية ضد الشاه إسماعيل الصفوي ، وذلك لأن الخطر البرتغالي كان يهدد الحدود الجنوبية من بلاده بشكل خطير ، ولهذا فلم يكن الخطر القادم من الشرق ليشغله بالخطر القادم من الجنوب .

ولكن محاولة الشاه اسماعيل الصفوي التحالف مع القوى الأوربية واقتسام الشرق العربي بينه وبينهم ، قد أثار مخاوف المماليك الذين خشوا أن يتم هذا الاتفاق فيتعرضون إلى خطر الشاه إسماعيل والدول الأوربية ، بخاصة بعد استيلائه على العراق . إذ جاء في الخطة التي وضعها الطرفان ووقعت في أيدي المماليك في عام ١٥١٠/٩١٦ ، أن يتعاون الصفويون والبنادقة (الافرنج) في القضاء على الدولة المملوكية ، فيقوم الصفويون بمهاجمة هذه الدولة برا من ناحية العراق ، على أن يقوم البنادقة بمهاجمتها من ناحية البحر . (ابن طولون ، ١٩٦٢ ، ج٢ : ٣٤) ، (ابن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ١٩١) ، (Savory, 1980: 108) .

أدت هذه المواقف العدائية من جانب الدولة الصفوية إلى توقف الاتصالات الدبلوماسية بينهما وبين الدولة المملوكية لمدة تقرب من سنتين . وقد تجددت هذه الاتصالات في عام ١٥١١/٩١٧ وذلك عندما أرسل الشاه اسماعيل الصفوي مبعوثا من قبله إلى سلطان مصر بعد انتصاره على أوزبك خان ، أحد ملوك التتار في تركستان . إلا أنه تبين بأن المبعوث الصفوي كان يحمل معه رأس ملك التتار بالاضافة إلى بيتين من الشعر تمثلان تهديدا للسلطان المصري وهما :

للسيف والخنجر ريحاننا ... أف على النرجس والآس
مدامنا في دم أعدائنا ... وكأسنا جمجمة الرأس(٤)

وقد أثار هذا الموقف السلطان المصري بحيث أنه خلع على مبعوث الشاه إسماعيل وأذن له بالعودة إلى بلاده على وجه السرعة ، وأمر بأن يمنع من الاجتماع بأي شخص في أثناء إقامته بمصر . (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٢٣٠)

أصبحت العلاقات المملوكية ــ الصفوية تحمل طابعا عدائيا في عام ١٥١٢/٩١٨ وذلك لأسباب عدة . ففي هذا العام وصلت طلائع الجيوش الصفوية إلى حدود بلاد الشام ، وقويت الاشاعات بأنها في طريقها إلى البلاد (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٢٥٧ــ٢٦٢) وفي العام نفسه عاد مبعوث السلطان المملوكي إلى الشاه إسماعيل الصفوي ، وذلك بعد أن أمضى في هذه السفرة قرابة السنتين ، قاسى فيها كثيرا من الشدائد والمحن . والأهم من ذلك أن الشاه اسماعيل لم يأبه لمقدمه ولم يكتب له رداً عن الرسالة التي بعثها إليه السلطان ، وأرسل جوابه مع مبعوثه الخاص . وعندما وصل المبعوث الصفوي إلى مصر وفتح الجواب الذي كان يحمله تبين أنه كان يتضمن كلاماً خشناً وفاحشاً ، ولهذا فقد أمر السلطان بأن يكتب له جواباً مماثلا بل وزيادة عليه (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٦ــ٢٦٥ــ٢٧١) ، (Clubb, 1980: 417) .

وهكذا أدت الأعمال العدائية التي قام بها الشاه إسماعيل الصفوي ضد المماليك المصريين إلى تخوف الأخيرين **لأنهم شعروا بأن ممتلكاتهم** في بلاد الشام أصبحت عرضة لتهديده ، بل إنها أفسحت المجال لمزيد من التقارب المملوكي ــ العثماني ، الذي كان من نتائجه أن أصبح الباب مفتوحا أمام السلطان سليم الأول لأن يقوم بمشروعاته ضد الدولة الصفوية ، دون أن تتحرك ضدّه الدولة المملوكية في الطرف الجنوبي (Shaw, 1976 : 80) .

وحدث في هذه الأثناء أن هاجمت الدولة العثمانية الدولة الصفوية ، وقامت معركة جالديران في عام ١٥١٤ التي انتصر فيها العثمانيون . وقد وضعت هذه الحرب السلطان قانصوه الغوري في موضع عصيب ، ذلك لأنها حتمت عليه إما الوقوف إلى جانب العثمانيين أو إلى جانب الصفويين أو على الحياد . ولما كانت علاقات الغوري بالشاه إسماعيل الصفوي سيئة منذ البداية ، وأن علاقاته مع السلطان سليم الأول لا تقل عنها سوءاً ، لذلك فقد التزم جانب الحياد في النزاع بين الطرفين (إبن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٧٦) ، (نوار ، ١٩٧٣ : ٧٤) ، وكانت هذه السياسة بحد ذاتها مثار غضب السلطان العثماني لأنها حالت دون حصول العثمانيين على تسهيلات من الدولة المملوكية ، في حين أنها كانت موضع تقدير الشاه إسماعيل الصفوي الذي أراد على أثرها أن يقيم علاقات حسنة مع الدولة المملوكية كما سنرى .

ب : العلاقات الودية .

وقف السلطان قانصوه الغوري ، كما سبق أن بينا ، موقف الحياد في الصراع الصفوي ــ العثماني عام ١٥١٤ ، وذلك لاعتقاده بأن المنتصر من الجانبين سيعمل على بسط نفوذه على حساب الدولة المملوكية وممتلكاتها في بلاد الشام ومصر . وقد نقل إبن اياس هذه الصورة بشكل واضح عند وصفه لخروج السلطان إلى حلب بقوله « أنا أخرج بنفسي وأقعد في حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان فإن كل من انتصر منهما على غريمه لابد أن يزحف على بلادنا (ابن اياس ١٩٦٠ ، ج ٥ : ٢٢) . ولكن من الثابت أن انتصار السلطان سليم الأول على الشاه اسماعيل في معركة جالديران عام ١٥١٤ قد قوبل بقلق بالغ لدى سلطان وأمراء المماليك في مصر ، وذلك لأنه أدى إلى اختلال توازن القوى في المنطقة لصلح العثمانيين . ولعل هذا هو السبب في تحسن العلاقات المملوكية ــ الصفوية والتي أشار إليها النهروالي قائلا : « كان بينه (أي قانصوه الغوري) وبين شاه إسماعيل محبة ومودة ومراسلات ... (النهروالي ، ١٩٦٤ : ٢٧٧) .

في ظل هذه الظروف إذن تقاربت وجهات القوتين المهددتين ــ الصفوية والمملوكية ــ فقام الشاه إسماعيل بالاتصال مع عدد من الملوك ، ومن بينهم سلطان مصر ، وذلك من أجل الحيلولة دون إقامة أي علاقات دبلوماسية مع السلطان سليم الأول ومساعدة بعضها البعض الآخر (Stripling ,1942: 40) وتحت هذه الظروف نفسها أرسل السلطان قانصوه الغوري مبعوثا إلى الشاه إسماعيل الصفوي بصورة سرية (إبن اياس ، ١٩٦٠ ، ج ٥ : ٣٥) ولا يستبعد أن تكون مهمة هذا المبعوث لأجل وضع نوع من أنواع التعاون بين المماليك والصفويين ، بخاصة بعد أن استفحل الخطر العثماني على الحدود الشمالية للدولة المملوكية .

ولهذا كله فإن تحرك الجيوش المملوكية إلى بلاد الشام عام ٩٢٢/١٥١٦ ، على أثر ما أشيع من تجهيز السلطان سليم حملة جديدة ضد الدولة الصفوية في العام المذكور ، قد وصف من قبل

بعض المؤرخين المعاصرين بأنه تنفيذ للمحالفة المملوكية ــ الصفوية ، رغم تظاهر السلطان المملوكي بأن تحركه إلى بلاد الشام إنما يرمي إلى إصلاح ذات البين بين السلطان سليم والشاه ، اسماعيل (الغربي ، ١٩٤٥ ، ج ١ : ٢٠٩ ، ٢٩٦ ــ ٧) وعلى أية حال ، فإن هذه الاتصالات والتحركات المملوكية ــ الصفوية أثارت مخاوف الدولة العثمانية ، وكانت أحد الأسباب المؤدية إلى توتر العلاقات المملوكية ــ العثمانية فيما بعد .

العلاقات المملوكية ــ العثمانية .

العلاقات الودية :

على العكس من العلاقات المملوكية ــ الصفوية التي بدأت عدائية وانتهت وديّة ، فإن العلاقات المملوكية ــ العثمانية بدأت ودية وانتهت عدائية . وتعود أسباب العلاقات الودية بين الدولتين المملوكية والعثمانية إلى عوامل عدة : فمنها ما يتعلق بسياسة بايزيد الثاني (١٤٨١ ــ ١٥١٢) السلمية وسعيه إلى التفاهم مع القوى العديدة المجاورة له ، أو ما يتعلق بالخطر البرتغالي الذي شجع العثمانيين على مد يد المساعدة للمماليك المصريين لمواجهة ذلك الخطر ، أو ما يتعلق بالخطر الصفوي الذي هدد كلتا الدولتين ودعاهما إلى التقارب بينهما أحيانا . فمن ناحية السياسة السلمية التي اتبعها بايزيد الثاني ارتسمت على أساسها طبيعة العلاقات العثمانية ــ المملوكية ، فقد التزم هذا السلطان العثماني بشروط الصلح التي تم الاتفاق عليها بين الدولتين عام ١٤٩١ بعد حروب طويلة ، ولم تحدث أية إساءة للعلاقات بينهما ، حتى اعتلاء سليم الأول عرش الدولة العثمانية في عام ١٥١٢ م (الراقد ، ١٩٧٢ : ١٠٦)

ومما يكشف عن العلاقات الحسنة التي سادت بين الدولتين العثمانية والمملوكية هو ذلك الموقف المعتدل الذي وقفه الطرفان المملوكي ــ العثماني إزاء التجاء قرقد ابن السلطان بايزيد الثاني إلى السلطان قانصوه الغوري على أثر خلاف وقع بينه وبين أخيه سليم الأول ، وطلب قرقد من السلطان الغوري أن يتدخل في الصلح بينهما (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج ٤ : ١٥٢ــ٤) ، وقد قام السلطان المملوكي بهذه المهمة بالفعل . فهو من ناحية بالغ في إكرام قرقد ، بخلاف ما وقع لجم بن محمد بن عثمان مع الأشرف قايتباي أثناء نزاعه على العرش مع أخيه بايزيد الثاني (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج ٤ : ١٥٠) ، ومن الناحية الأخرى أرسل من قبله مبعوثا إلى السلطان العثماني بايزيد ، وكان الغرض من ذلك ، كما تشير المصادر المعاصرة ، هو الوساطة بين الأخوين المتنافسين . ويبدو بأن هذه المبادرة قد لقيت قبولا من لدن السلطان العثماني ، وذلك بدليل ما لقيه المبعوث المملوكي ، من معاملة حسنة في البلاط العثماني (ابن طولون ، ١٩٦٢ ، ج١ : ٣٣٥) (ابن اياس ١٩٦٠ ، ج٤ : ١٨٤) وفي عام ١٥١٠/٩١٦ عاد قرقد إلى البلاط العثماني ، وقد أشاد كثيراً بالمعاملة الطيبة التي لقيها من قبل السلطان المملوكي ، وفي حينه بالغ ابن

إياس كثيرا بتلك المعاملة حيث أراد أن يشير إلى إمكانية إقامة نوع من التعاون المملوكي ــ العثماني بوجه الخطر الصفوي المتزايد (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ١٨٦ــ٧) .

كان عام ٩١٦/١٥١٠ عاماً حافلًا بالاتصالات الدبلوماسية بين القاهرة واسطنبول : ومما شجع تلك الاتصالات هو ظهور البرتغاليين على الحدود الجنوبية للدولة المملوكية ، ودخول الأخيرة في حرب معهم ، لأنهم هددوا هذه الدولة بصورة مباشرة وعرضوا اقتصادياتها المتأتية من تجارة الشرق للانهيار . وأصبحت الحاجة ملحة للحصول على المساعدة العثمانية وذلك بعد اندحار المماليك في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ وعندئذ طلب السلطان الغوري مساعدة السلطان العثماني بايزيد الثاني ، وارسل له يونس العادلي ليشتري له ما يحتاجه من أخشاب وحديد وبارود ومعدات أخرى ، بقصد بناء الأسطول المصري الجديد (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ١٩٦) ، وقد استجاب السلطان العثماني إلى رغبة السلطان المصري فأمده بما طلبه من معدات وذخائر دون أن يتقاضى ثمنها وقدمها هدية له (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٢٠١) . وبهذه الصورة تحسنت العلاقات المملوكية ــ العثمانية إلى درجة كبيرة ، لا بسبب بروز الخطر الصفوي فحسب ، وإنما بسبب وصول المساعدات التقنية العثمانية للمماليك المصريين في المناطق العثمانية بصورة مستمرة في وقت كان فيه المماليك بأمس الحاجة إليها (Hess, 1973: 67) .

وإذا كانت العلاقات بين المماليك المصريين والأتراك العثمانيين قد تحسنت زمن السلطان بايزيد الثاني وقانصوه الغوري ، فإن هذا التحسن قد استمر خلال السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الأول أيضا ، وإلا فإن الفرص أمام هذا السلطان لاثارة الصدام بين المماليك والعثمانيين كانت متوفرة خصوصا بعد التجاء سليمان بن أحمد ابن أخ السلطان سليم الأول إلى مصر ، وتخوف السلطان قانصوه الغوري نفسه من هذا الأمر خشية أن يؤدي إلى توتر العلاقات بين الطرفين (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٢٨٩) . وتجنبا لبدأ الحرب مع المماليك وايجاد خصم محتمل له في هذه الفترة المبكرة من حكمه التي كانت تحتاج إلى تدعيم الجبهة الداخلية ، فلم يشتك السلطان سليم الأول من مسألة لجوء سليمان إلى البلاط المملوكي ، بل إنه استقبل مبعوثي الدولة المملوكية بعد اعتلائه العرش بصورة مباشرة وأظهر لهم كل معاني الاحترام والتقدير (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٢٤ ، ٣٧٥) ، (Stripling, 1942: 39) .

كانت مسألة قيام الدولة الصفوية وتوسعها السريع على حساب الدول المجاورة لها ، تمثل نقطة التقاء في وجهات النظر العثمانية ــ المملوكية وهي التي أوجدت نوعا من التفاهم والسلام بينهما . فكما سبق وأن أشرنا ، فإن الشاه اسماعيل الصفوي كان قد غزا معظم الأجزاء الشمالية في العراق ومن ثم استولى على بغداد عام ١٥٠٨ . وبعدها دخل في حرب مع علاء الدولة ، حاكم إمارة ذي القدر ــ ذات الأهمية الاستراتيجية للدولة المملوكية ، وكانت موضع ادعاء من قبل الدولتين العثمانية والمملوكية . (Stripling, 1942: 39) . والأهم من ذلك أن الشاه إسماعيل بعد أن انتصر على عدوه أوزبك خان ملك التتار في تركستان ، أرسل بيتين من الشعر إلى كل من

السلطان سليم الأول والسلطان قانصوه الغوري يتوعدهما ويهددهما وجاء فيهما :

نحن أنـــــاس قد غدا شأننـــــا حـــب علـــي بـــن أبـــي طـالـــب
يعيبنـــــا النـــــاس على حبـــــه فلعنـــــة اللـــــه على العـــــائب

فأجابه السلطان سليم عن ذلك :

ما عيبكـــــم هذا ولكنـــــه بغض الـــــــــذي لقب بالصاحب
كذبتمـــوا عنـــه وعـــن ابنتـــه فلعنـــة اللـــه على العـــائب[٥]

ربما كشف هذا التهديد للسلطان سليم الأول بأن الخطر الذي يحيط به الآن ، هو ليس القوى الأوربية ولكن الشاه إسماعيل الصفوي ولهذا فقد اتجهت أنظاره صوب هذا الخطر . (الغزي ، ١٩٤٥ : ٢٩٦) ، (Hess, 1973: 67) .

وعلى هذا الأساس فقد قرر السلطان سليم الأول الدخول في حرب مع الشاه إسماعيل الصفوي ، وذلك لأنه لم يكن هناك مجال كبير للاختيار لأن تزايد خطر إسماعيل الصفوي كان يهدد الدولة العثمانية نفسها . وعندما وقعت الحرب أرسل السلطان سليم مبعوثه إلى السلطان الغوري وهو يقترح إقامة تحالف مشترك بينهما ضد الشاه إسماعيل . وقد نقل إبن إياس هذه الواقعة بقوله : « فأرسل يعلم السلطان بذلك (أي بتقدمه ضد الشاه إسماعيل) وأن يكون هو والسلطان أمرا واحدا وقولا جازما على الصوفي حتى يكون في أمره ما يكون » . (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٧٢) وكان الموقف الذي اتخذه السلطان الغوري هو إرسال بعض قواته إلى حلب لمعرفة ماتسفر عنه الحرب الدائرة بين العثمانيين والصفويين (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٥ : ٣٥) .

وفي الأشهر التالية ، كانت العلاقات طيبة بين السلطان سليم الأول والسلطان قانصوه الغوري ، وفيها تم تبادل المبعوثين بين الطرفين (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٥٩) ويظهر أن قلق السلطان الغوري ـــ حتى هذا الوقت ـــ كان منصباً حول الحالة في البحر الأحمر وتخوفه من خطر قيام البرتغاليين بمهاجمة جدّه ، وأن الشيء الوحيد الذي جعله يوجه اهتمامه فعلًا من الجنوب إلى الشمال ، هو انتصار العثمانيين على الصفويين في معركة جالديران عام ١٥١٤ . (Hess, 1970: 1909) فهو لم يثق في بداية الأمر بالأخبار الأولية عن انتصار العثمانيين الساحق على قوات الشاه إسماعيل ، وأرسل من يستطلع الأخبار الصحيحة عن ذلك ، وفي حينه سر السلطان بهذه الاشاعة وأمر بأن تقام الاحتفالات في الجوامع (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٩٢) ولكن في حقيقة الأمر فإن هذه النتيجة كانت على غير ما يهوى السلطان قانصوه الغوري إذ حالما تأكدت أخبار انتصار السلطان سليم على الشاه إسماعيل في معركة جالديران واستخدام الأول لما يقرب من ١٢,٠٠٠ مقاتل مزودين بالأسلحة الحديثة والمدفعية في هذه المعركة ، ازداد قلق السلطان الغوري وأمراء المماليك في مصر لأن هذا التطور في إمكانية الجيش العثماني كان يمثل تهديداً لهم . ولعل هذا هو السبب في عدم احتفال الدولة المملوكية بانتصار سليم في هذه الموقعة ، وهذا هو السبب عينه الذي عجز عن تعليله

إبن إياس عند تعرضه لهذه الواقعة حيث قال : « فلما حضر قاصد سليم بين يدي السلطان وقرئت مكاتبته بحضرة الامراء أخلع على القاصد الذى حضر بأخبار هذه النصرة ، ثم أنزل القاصد من القلعة ، ولم يرسم السلطان بدق الكوسات في القلعة ولم يناد في القاهرة ، ولم يعلم ما سبب ذلك » (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٠٢) .

والواقع أنه بدا واضحا للسلطان الغوري أن ميزان القوى قد أخل إخلالا خطيرا في عكس صالح المماليك لصالح السلطان سليم الأول ، ولهذا أخذت تنتابه الشكوك من هذا السلطان ، إلا أنه لم يفعل شيئا حتى عام ١٥١٦ .

ب ــ العلاقات العدائية :

بغض النظر عن العلاقات العدائية التي قامت بين الدولتين المملوكية والعثمانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فإن حالة من الهدوء والاستقرار قد سادت بينهما منذ أن تم توقيع السلام في عام ١٤٩١ بين السلطان العثماني بايزيد الثاني والسلطان المملوكي قايتباي ، واستمر الأمر كذلك حتى في السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الأول .

ولكن بعد انتصار السلطان سليم على الشاه إسماعيل في جالديران عام ١٥١٤ ، وشعوره بأن الضربة التي وجهها إلى الصفويين قاصمة وأنه لم يعد في مقدورهم أن يقوموا بأي تهديد عسكري للدولة العثمانية ، فقد أظهر روحاً استعلائية كبيرة ، وهذا مانراه واضحا في مراسلاته إلى السلطان المملوكي التي تضمنت الاشادة بنفسه وبقوة جيشه وكثرته وشدة بأسه . (ابن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٩٥ــ٦) وهذه الأمور وإن حاول السلطان الغوري أن يقلل من أهميتها في نظر قواده وأمرائه ، لكنها في الحقيقة أخذت تثير شكوكه وخشي بأن خطراً جسيما يهدد كيان الدولة المملوكية . ولهذا قوبل نبأ انتصار السلطان سليم على الصفويين بهجوم شديد في الدوائر المملوكية الحاكمة وقال إبن إياس في ذلك : « وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن عثمان وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان » . (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٩٨)

لم تكن مخاوف المماليك في غير محلها ، ذلك لأن السلطان سليم قد كشف عن نواياه الحقيقية تجاه الدولة المملوكية أثناء عودته من الحرب الفارسية . فبينما تجنب في بداية الحرب أي احتكاك مع مناطق الحدود المشتركة بين المماليك والعثمانيين ، إلا أنه اتخذ موقفاً مغايراً فيما بعد عندما فتح باب النزاع مع المماليك وشرع في غزو إمارة ذي القدر الحاجزة بين الدولتين (القرماني ، ١٩٧٨ : ٣٤٠) .

كانت إمارة ذي القدر ، كما أشرنا سابقا ، من الامارات المهمة استراتيجيا بالنسبة للدولة المملوكية حيث أنها كونت نطاقا حاجزاً بين أملاك الدولتين العثمانية والمملوكية . وقد دعمت هذه الأمارة من سلاطين المماليك منذ تأسيسها في منتصف القرن الرابع عشر ، إلا أنها تعرضت

لمحاولات عديدة للتدخل من جانب السلاطين العثمانيين وذلك بتنصيب حاكم يدين بالولاء لهم واتباع سياسة مضادة للسياسة المملوكية ، مما كان يتسبب في تدهور العلاقات بين الدولتين ، وهذا ما حدث بالفعل في عام ١٥١٥ ، وذلك عندما قرر السلطان سليم غزو إمارة ذي القدر (الراقد ، ١٩٧٨ : ٥٢ــ٣) ، (أنيس ، بدون تاريخ : ١٠٩) .

ويعود سبب الموقف العدائي الذي اتخذه السلطان سليم في هذه الامارة ، لامتناع حاكمها علاء الدولة ، وبتحريض من السلطان الغوري ، تقديم المؤن اللازّمة للجيش العثماني وهو في طريقه إلى فارس فعطل بذلك تقدمها بعض الوقت ، فلما انتهى من غزو فارس قرر إزالة هذه الدويلة (النهروالي ، ١٩٦٤ : ٢٧٧) ، (القرماني ، ١٩٧٨ : ٣٤٠) ، (عمر ، ١٩٧١ : ٦٨ــ٦) .

استلم السلطان الغوري في عام ١٥١٥ رسائل عديدة ومثيرة من السلطان سليم ، وهي تشير إلى أحقية الحاكم العثماني بالتدخل في شؤون إمارة ذي القدر . ويحدثنا إبن إياس عن مضمون إحدى تلك الرسائل في محرم ٩٢١/ شباط ١٥١٥ بقوله : « حضر قاصد من عند سليم شاه وعلى يده مكاتبه من سليم شاه للسلطان ، فكان من مضمون تلك المكاتبة أن شخصا من أولاد شاه سوار بن (ذ الغادر) حصل بينه وبين عمه دولات (علاء الدولة) تشاجر بسبب بلاد أبيه فحنق منه وتوجه إلى ابن عثمان ، فتعصب له سليم شاه وأرسل يسأل السلطان في أن يعطي ابن سوار بلاد أبيه التي بيد على دولات ، فلم يوافق السلطان على ذلك .. وربما تتسع هذه الفتنة بين ابن عثمان والسلطان (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٣٣٥) .

وفي خلال تلك الأحداث ساد القلق في الأوساط المملوكية حول إمكانية استخدام السلطان سليم هذه المسألة لشن حرب ضد الدولة المملوكية ، وعندئذ أرسل السلطان الغوري أربعة من أمرائه إلى حلب (آذار ــ نيسان ١٥١٥) لمعرفة النوايا العدائية التي يضمرها الحاكم العثماني (إبن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٣٦ ، ٤٣٨) ومما زاد في تخوف السلطات المملوكية ورود التقارير إلى القاهرة وهي تشير إلى قيام السلطان سليم بتجهيز حملة بحرية قوامها أربعمائة مركب وأن هدفها هو البحر المتوسط ، وقد تكون وجهتها الموانىء المصرية مثل الاسكندرية ، لذلك سارع السلطان الغوري بالسفر إليها وتفقد أحوال الأبراج التي هناك وأعاد ترميم بنائها ، (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٤٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٨٣) ، (Hess, 1970: 1909) وقد أشار المؤرخ المعاصر ابن إياس بأن هذه الاستعدادات العثمانية قد جاءت في نفس الوقت الذي غزا فيه السلطان سليم إمارة ذي القدر ، وقضى على حاكمها علاء الدولة ، وأرسل سليم رؤوس علاء الدولة وولده ووزيره إلى السلطان الغوري ، مما تسبب في غضب السلطان الذي قال : « لماذا بعث لي هذه الرؤوس ، أهي رؤوس ملوك الافرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لي » ! (إبن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٦٢).

تأكدت للسلطان الغوري نوايا العثمانيين الهجومية عن طريق التقارير التي وردت إليه من نوابه ومبعوثيه لبلاد الشام ، ولكنه حتى هذا الوقت لم يكن قد قرر بعد إعلان الحرب على الدولة العثمانية رغم الحاح أمرائه وقواده على ذلك ، الذين طالبوه بأن يتخذ إجراءات حازمة ضد السلطان سليم ، وأن لا يقوم بإرسال أي مبعوث إليه في إطار الاتصالات الدبلوماسية بينهما . (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٦٧) ذلك لأن السلطان الغوري لم يفقد الأمل في إمكانية تحقيق صلح مع العثمانيين وليس أدل على ذلك من إطلاقه سراح الرسول العثماني عام ١٥١٥/٩٢١ (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٨٣) ، رغم إحتجاز سليم لرسوله . (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٧٠ ــ ١) .

وفي ذلك الجو المشحون بالتوتر والقلق وردت الأنباء إلى القاهرة بأن السلطان سليم يعمل على زيادة التوتر في العلاقات بينه وبين المماليك ، وتصعيد الخطورة إلى درجة تصبح الحرب أمرا لا مفّر منه . وجاء ذلك على لسان بعض المبعوثين الذين أرسلهم السلطان الغوري إلى السلطان سليم ، فاطلعوه بعد عودتهم أن الأخير عازم على استيلائه على إمارة ذي القدر وقلاعها وهو يقول حسبما ذكر ذلك ابن إياس : « أنا ما أخذت هذه القلاع إلا بالسيف وما أردهم إلا بالسيف ، وأنه ما هو راجع عن التوجّه إلى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر ، وهو في عمل يرق عظيم وجهز المراكب في البحر ليجيء على الاسكندرية ودمياط » (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٤ : ٤٨٣) .

وعلى ذلك لم يستطع السلطان الغوري أن يظل ساكنا إزاء حوادث الاستفزاز العثماني ، وإزاء الأخبار التي أخذت تترامى إلى مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على أراضي الدولة المملوكية . لذلك أمر بإرسال حملة كبيرة إلى حلب استعداداً للطوارىء ، على أن يكون السلطان الغوري نفسه على رأس تلك الحملة (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٥ : ٢٢) حدث هذا رغم أن خاير بيك ، نائب حلب ، قد أرسل رسالة إلى السلطان الغوري يعلمه بأن قصد السلطان سليم هو محاربة الشاه إسماعيل الذي كان يستعد لحربه وليس الزحف على بلاد السلطان (ابن اياس ١٩٦٠ ، ج٥ : ٢٢) . وتكشف هذه الرسالة الستار عن الدور الخياني الذي لعبهُ خاير بيك منذ ذلك الوقت والذي كان له أبعد الأثر فيما بعد في الهزيمة التي حلت بالغوري . (عاشور ، ١٩٧٢ : ٢٥٩) .

وهكذا لم ينتصف شهر مارس ١٥١٦/٩٢٢ إلا وكان الغوري قد تأهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام . ومما يلفت النظر هنا ورود العديد من الرسل من السلطان سليم إلى السلطان الغوري ، وهم يحملون رسائل الود والمحبة والرغبة في التعايش السلمي مع سلطنة المماليك ، على أن يبقى السلطان الغوري بعيدا عن الصراع بينه وبين الشاه إسماعيل (إبن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٥ : ٤٥ ، ٦٠) الا أن السلطان الغوري على ما يظهر أدرك القصد من وراء هذه المناورات العثمانية ، التي كانت تستهدف كسب الوقت من ناحية ، وكسب بعض

الأمراء المماليك إلى جانب العثمانيين من جهة أخرى . وقد عبر إبن إياس في حينه عن ذلك بقوله : « وكان هذا كله حيلا وخداعا من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد » (ابن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٥ : ٤٥) وقوله أيضا : « وكل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويثني عزمه عن ذلك (ابن اياس ، ١٩٦٠ ، ج٥ : ٦٠).

ولم يكن ابن اياس مبالغا في سوء ظنه بالعثمانيين عندما أطلق عليهم تلك النعوت بل إنه كان مدركا لنواياهم عندما قال : « وأظهر (أي السلطان سليم ، أنه قاصد الصوفي ليحاربه ، والأمر بخلاف ذلك » (إبن إياس ، ١٩٦٠ ، ج٥ : ٦٠) . وهكذا كانت توقعات ابن إياس المعاصرة صحيحة ، إذ كان السلطان سليم على ما يبدو يخطط لغزو بلاد الشام ومصر ، فبدأ مشروعه هذا بمحاربة المماليك في موقعة مرج دابق . كما عمل على اجتذاب كبار أمراء المماليك إلى جانبه وتمكن بالفعل من الاتفاق مع الأميرين خاير بك وجان بردى الغزالي . وبالرغم من أن سيباي ، نائب دمشق حذر السلطان الغوري في خيانة هذين الأميرين ، إلا أن الغوري لم يستمع إليه . ولم يتحقق من صدق نبوءة الأمير سيباي إلا في أرض معركة مرج دابق ٢٦ رجب ٩٢٢ (٢٤ آب ١٥١٦) ، والتي انتهت بهزيمة المماليك إثر انسحاب الأميرين ومماليكهما من الصفوف بعد أن لاحت علائم النصر للسلطان الغوري (Muir, 1968: 195) . وبهذا انطوت صفحة طويلة من العلاقات العدائية التي سادت بين الدولتين المملوكية ــ العثمانية لتنتهي باحتلال العثمانيين لأملاك الدولة المملوكية في بلاد الشام ومصر ، وكان ذلك فاتحة للتوسع العثماني في أقطار الوطن العربي الأخرى ، وأكبر حدث تاريخي في المنطقة في مطلع القرن السادس عشر .

وهكذا ، نلاحظ أن المماليك المصريين أدركوا بصورة جيدة طبيعة الظروف الصعبة التي كانت تمر بها دولتهم ، بسبب تحول طرق التجارة العالمية عبر أراضيهم في بلاد الشام ومصر وانقطاع مورد أساسي في مصادر ثروتهم بسبب ذلك ، بالاضافة إلى ثورات المماليك المستمرة في الداخل . كما أنهم أدركوا طبيعة المخاطر التي كانت تحيط بهم من جانب الدولتين الفتيتين الصفوية والعثمانية ، وأطماعهما في ممتلكات الدولة المملوكية ، ولهذا فقد حاولوا أن يتخذوا سياسة سلمية وحيادية إزاء هاتين الدولتين الطامعتين ، إلا أنه يظهر إن كلا الدولتين ــ بخاصة العثمانية ــ كانت راغبة في التوسع على حساب الدولة المملوكية والقضاء عليها ، وهذا ما حدث بالفعل حيث أزالت الدولة العثمانية الدولة المملوكية من الوجود في عام ١٥١٦ ــ ١٥١٧ .

الهوامش :

١) الدولة الصفوية : إحدى الدول التي نشأت نتيجة لحركة الاضطراب الذي عمّ ايران والعراق عقب زوال حكم المغول هناك . وقامت هذه الدولة على أسس دينية ثم استخدمت مظاهرها السياسية والعسكرية في عهد حيدر صفىّ الدين ثم في عقب خلفه الشاه إسماعيل ، الذي عمد إلى توسيع دائرة نفوذه خارج إيران في الغرب على حساب العراق وممتلكات دولة الآق قوينلو ــ القرماني ، أخبار الدول وآثار الأول ، ص ٣٤٠ .

٢) دولة الآق قوينلو : ويعني إسمها (دولة الخروف الأبيض) ويعود أصلها إلى احدى القبائل التركمانية التي عاصرت تيمورلنك ، ثم توسعت فملكت ديار بكر وأربيل والموصل وماردين واتخذت ديار بكر عاصمة لها ثم مدت نفوذها على بغداد وبعض مناطق العراق الأخرى في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

٣) إمارة ذي القدر التركمانية : إحدى الامارات التركمانية التي نشأت منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، ووجدت دعماً وإسناداً من قبل دولة المماليك . ونظراً لأهميتها فقد تعرضت لمحاولات التدخل من جانب السلاطين العثمانيين وذلك بتنصيب حاكم يدين بالولاء لهم ، وقام السلطان سليم بالاستيلاء عليها وضمها إلى الدولة العثمانية في عام ١٥١٥ .

٤) أنظر إبن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الأمور تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة : ١٩٦٠ ، جـ٤ ، ص٣٩ . أنظر أيضا نجم الدين الغزى ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت : ١٩٤٥ ، ج٤ ، ص٢٩٦ .

٥) أنظر إبن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الأمور ، تحقيق محمد مصطفى : القاهرة : ١٩٦٠ ، جـ ١٤ ، ص ٢٢١ . أنظر أيضا نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت : ١٩٤٥ ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ــ أما بالنسبة للبيتين اللذين أرسلهما قانصوه الغوري فقد سبقت الاشارة إليهما في موضع سابق .

المراجع العربية :

إبن إياس ، محمد بن أحمد ، **بدائع الزهور في وقائع الأمور** ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة : ١٩٦٠ .

إبن طولون ، شمس الدين ، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان** ، تحقيق محمد معطف ، القاهرة : ١٩٦٢ .

أنيس ، محمد بن محمد ، **الدولة العثمانية والشرق العربي** ١٥١٤ــ١٩١٤ ، القاهرة : بدون تاريخ .

الراقد ، محمد عبد المنعم السيد ، **الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي** ، القاهرة : ١٩٧٢ .

عاشور سعيد عبد الفتاح ، **مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك** ، بيروت : ١٩٧٢ .

عمر ، عمر عبد العزيز ، **دراسات في تاريخ العربي الحديث : الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثاني عشر** . بيروت : ١٩٧١ .

الغزى ، نجم الدين ، **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة** ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، بيروت : ١٩٤٥ .

القرماني ، أبو العباس أحمد ، **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ** ، بيروت : ١٩٧٨ .

بن يوسف بن أحمد

الدمشقـــي

القهواتي ، حسين محمد ، **العراق بين الاحتلالين العثمانيين** ، رسالة ماجستير لم تنشر ، بغداد : ١٩٧٥ .

النهروالي ، قطب الدين ، **الاعلام بأعلام بيت الله الحرام** ، بيروت : ١٩٦٤ .

نوار ، عبد العزيز سليمان ، **الشعوب الاسلامية : الأتراك العثمانيون ، الفرس ومسلمو الهند** ، بيروت : ١٩٧٣ .

المراجع الأجنبية :

Clubb, John B. **Soldiers of fortune, the story of the Mamlukes,** London: 1973.

Grey, Charles. "Travels of Merchants in Persia", Trans. and Ed. Charles Grey. **A Narrative of Italian Travels in the Fifteenth and Sixteenth Centuries.** London: 1971, pp. 194-7.

Hess, Andrew C. "The evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the age of Oceanic discoveries 1453-1525", **American Historical Review,** vol. IXXV, (December 1970), p. 1909.

— "The Ottoman conquest of Egypt (1517) and the beginning of the Sixteenth Century World War". **Int. J. Middle East Stud.** 4 (1973, p. 67.

Muir, William. **The Mamluke or Slave dynasty of Egypt from 1260-1517.** Amesterdam: 1968.

Savory. Rogev. **Iran under the Safavids.** Cambridge: 1980.

Shaw, Stanford. **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey 1280-1808.** Cambridge University Press, 1976, vol. 1.

Stripling, G.W.F. **The Ottoman Turks and The Arabs 1511-1574.** Urbana, 1942, p.40.

Toynbee, Arnold J. **A Study of History.** Oxford: 1965, (vol.1. Appendix I.) 1965.